

المثل السائر

هلك فأفكر وهو يكتب في إشارة عمياء لا تفهم ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ فأداه فكره أن كتب في آخر الكتاب عند إنهائه " إن شاء الله تعالى " وشدد إن وكسرهما ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح فوقف عليه وأرسله إلى ابن منقذ فلما صار في يده وعلم ما فيه قال هذا كتاب صديقي وما يغشني ولولا أنه يعلم صفاء قلب ابن صالح لي لما كتب إلي ولا غرني ثم عزم على العود وكان عنده ولده فأخذ الكتاب وكرر نظره فيه ثم قال له يا أبت مكانك فإن صديقك قد حذرنا وقال لا تعد فقال وكيف ؟ قال إنه قد كتب إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب وشدد إن وكسرهما وضبطها ضبطا صحيحا لا يصدر مثله عن سهو ومعنى ذلك أنه يقول إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك وإن شككت في ذلك فأرسل إلى حلب .

وهذا من أعجب ما بلغني من حدة الذهن وفطنة الخاطر ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة لما تفتن إلى مثل ذلك أبدأ لأنه ضرب من علم الغيب وإنما الخوف دله على استنباط ما استنبطه .
ووجد لبعض الأدباء لغز في حما مغممه ما أجاد فيه كقوله وقد أظلتها سماء ذات نجوم لا استراق لها ولا رجوم وهي مركبة في فلك صحت استدارته وسكنت إدارته .

(أَعْجَبُ بِهِهَا مِنْ أَنْجُمٍ ... عِنْدَ السَّيَّاحِ طَاهِرُهُ) .

(لَكِنَّهَا إِذَا بَدَا ... نَجْمُ الظَّلَامِ غَائِرُهُ) فهي على القياس جنة نعيم مبنية على لظى جحيم لا خلود فيها ولا مقام ولا تزاور بين أهلها ولا سلام أنهارها متدفقة ومياهاها مترقرقة والأكواب بها موضوعة والنمارق عنها منزوعة .

(يُطَيِّعُ بِهِهَا الْمَوْلَى أَوَامِرَ عَيْدِهِ ... وَيُصْبِحُ طَوْعاً فِي يَدَيْهِ مَقَاتِلُهُ) .

(وَيُرْفَعُ عَنْهُ التَّاجُ عِنْدَ دُخُولِهِ ... وَتُسَلَّبُ مِنْ قَبْلِ

الْجُلُوسِ غَلَاةُ لُحَاهُ)